من لوازمها في الحديث: غلطانٌ أنتَ يا صديقي إن حسبتَ أن المرأة تنقم على رجل الدين أنه يَدَعُ السماء من أجلها!

قال: وما رأيك في الراهبة التي تترك السماء من أجل رجلٍ؟ ألها عندك مثل هذا المكان من الإعجاب؟

قالت: إن الراهبات لا يعظن أحدًا، واللعبة تفقد كثيرًا من بهجتها بهذا الدور البسيط الذي تمثله الراهبة الغاوية، وأعني به دور الوجه الوحيد!

إذن ما أضيع الوعظ عند صاحبتنا التي لا تعجب من الوعاظ إلا بقدرتهم على الوعظ وقدرتهم بعد ذلك على نقض المواعظ.

نعم، إنها تتذوق الكلام وتعطيه «درجته» العادلة من التقريظ والتأثر، ولا يبعد أن تبكي إذا كان فيه ما يحرك الشجن ويستدر الدمع، ولكنها لن تزيد على ذلك، ولن تخلط بين التقدير الفني والنتائج العملية! ولو كانت في موضع السلطان العثماني «سليم الأول» لبكت من قصيدة الشاعر الذي تشفَّع لديه بالشعر البليغ ليعفو عنه، ثم أمرت كما أمر بسوقه إلى ساحة الموت عقيب إنشاده القصيدة؛ لأن الفن شيء والسياسة شيء آخر!

أم أن صاحبنا، وليكن اسمه «همامًا»، وليكن اسمها منذ الآن «سارة» لتيسير الكلام عنهما …

أم أن صاحبنا «همامًا» قد شاقته الفتاة بعد الفراق القصير ولم يشأ أن يعترف بشوقه ولا أن يستدعيها إليه صراحةً فعمد إلى كتابة الخطاب ليفتح باب الحديث فاللقاء …؟!

لا، ولا كل هذا.

إن «همامًا» لَمْ يكن من دأبه أن يقصر في مراجعة نياته ودسائس طبعه، ولقد يغلو في ذلك حتى يعزو إلى نفسه من المقاصد ما ليس في حسبانه، ولكنه — غلا أو لَمْ يغلُ — ما كان في وسعه أن يزعم أنه بحاجة إلى تلك الحيلة لتدبير اللقاء دون استدعاء؛ فاللقاء لَمْ يكن بالشيء العسير، ولم يكن بينهما بعد القطيعة ما يُلجئ إلى الحيلة والمناورة، ولعل انتظاره الهداية من توجيه ذلك الخطاب أقرب إلى التصديق من التذرع به إلى تدبير لقاء.

السبب في الحقيقة أنه لا سبب هناك.

السبب هو الحيرة الملحاح التي تستحثنا إلى كل عملٍ مستطاعٍ دون أن نستوضح أنفسنا عن علةٍ معقولةٍ أو نتيجةٍ مأمولةٍ، وكل مَن حار هذه الحيرة يومًا يذكر أنه فعل شيئًا لا علة له، ولا هو يقبل التعليل.